المجال الثاني عشر
الدعاء

obeikandl.com

ورد النهي في هذا المجال في سياق واحد سياق دعاء المؤمنين الله تعالى ألا:

١ – يؤاخذهم حال الخطأ والنسيان، في قوله تعالى: ﴿ ... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ... ﴾ (٢٨٦).

جاء في معنى المؤاخذة: "وآخَذَه بذنبه مُؤاخذة: عاقبه[١]"، أما الخطأ فهو: "العدول عن الجهة[٢]"، وهو على أنواع: "**أحدها**: أن تريد غير ما تحسن إرادته فتفعله، وهذا هو الخطأ التامّ المأخوذ به الإنسان، يقال: خَطِئَ يَخْطَأُ، خِطْأً، وخِطْأَةً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾(الإسراء: ٣١)، وقال: ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾(يوسف: ٩١).

والثاني: أن يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال: أَخْطَأَ إِخْطَاءً فهو مُخْطِئٌ، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهذا المعنيّ بقوله عليه السلام: «رفع عن أمّتي الخَطَأ والنسيان»، وبقوله: «من اجتهد فأخطأ فله أجر»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾(النساء: ٩٢).

والثّالث: أن يريد ما لا يحسن فعله ويتّفق منه خلافه، فهذا مخطئ في الإرادة ومصيب في الفعل، فهو مذموم بقصده وغير محمود على فعله، وهذا المعنى هو الذي أراده في قوله: أردت مساءتي فاجترت مسرّتي وقد يحسن الإنسان من حيث لا يدري[٣]".

وورد في تعريفه أيضا: "الخطأ: هو ما ليس للإنسان فيه قصد، وهو عذر صالح لسقوط حق الله تعالى إذا حصل عن اجتهاد ويصير شبهة في العقوبة حتى لا يؤثم الخاطىء ولا يؤاخذ بحد ولا قصاص ولم يجعل عذرا في حق العباد حتى وجب عليه ضمان العدوان ووجبت به الدية كما إذا رمى شخصا ظنه صيدا أو حربيا فإذا هو مسلم أو غرضا فأصاب آدميا وما جرى مجراه كنائم ثم انقلب على رجل فقتله[٤]".

والنسيان هو: "تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ، إمَّا لضَعْفِ قلبِهِ، وإمَّا عن غفْلةٍ، وإمَّا عن قصْدٍ حتى يَنْحَذِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ، يقال: نَسِيتُهُ نِسْيَاناً[٥]"، وقيل: هو "زوال

---

(١) لسان العرب، ابن منظور (أخذ)، ٣ / ٤٧٠
(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٢٨٧
(٣) نفسه، ١ / ٢٨٧
(٤) التعريفات، الجرجاني، ١ / ١٣٤
(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٨٠٣

صورة المعلوم عن النفس بحيث لا تتمكن من ملاحظتها إلابتجشم إدراك جديد[1]"، وقيل: "النسيان هو الغفلة عن معلوم في غير حالة السنة، فلا ينافي الوجوب; أي نفس الوجوب ولا وجوب الأداء[2]".

وقيل: "النسيان على وجهين:أحدهما: أنه قد يتعرض الإنسان للفعل الذي يقع معه النسيان فيحسن الاعتذار به إذا وقعت منه جناية على وجه السهو، والثاني: أن يكون النسيان بمعنى ترك المأمور به لشبهة تدخل عليه، أو سوء تأويل وإن لم يكن الفعل نفسه واقعا على وجه السهو فيحسن أن يسأل الله مغفرة الأفعال الواقعة على هذا الوجه. والنسيان بمعنى الترك مشهور في اللغة; قال الله تعالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ; يعنى تركوا أمر الله تعالى فلم يستحقوا ثوابه[3]".

وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة سبب نزول هذه الآية الكريمة; حيث قال: "لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الْآيَةَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، ثُمَّ قَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ، وَالصِّيَام، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ: أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ". قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا قَرَأَهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِثْرِهَا: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(البقرة: ٢٨٥) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾(البقرة: ٢٨٥)، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) قَالَ:

---

(١) دستور العلماء، عبد رب النبي نكري، ٣ / ٢٧٨

(٢) التعريفات، الجرجاني، ١ / ٣٠٩

(٣) أحكام القرآن، الجصاص، ٢ / ٢٧٨

نَعَمْ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾(البقرة: ٢٨٦) قَالَ: نَعَمْ ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(البقرة: ٢٨٦) قَالَ: نَعَمْ[١]".

ولا شك أن المقام هنا – أعني مقام الدعاء والتضرع لله – من أشرف المقامات وأسماها التى يمكن أن يقومها العبد مع ربه أو في عبادته لربه; فالدعاء هو العبادة بل مخها، "إذ الداعي يشاهد نفسه في مقام الحاجة والذلة والافتقار، ويشاهد ربه بعين الاستغناء والإفضال[٢]".

وفي هذا النص الكريم "يجوز أن يكون هذا الدعاء محكياً من قول المؤمنين: الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾(البقرة:٢٨٥)، بأن اتبعوا القبول والرضا، فتوجهوا إلى طلب الجزاء ومناجاة الله تعالى. واختيار حكاية هذا عنهم في آخر السورة تكملة للإيذان بانتهائها. ويجوز أن يكون تلقينا من جانب الله تعالى إياهم: بأن يقولوا هذا الدعاء، مثل ما لقنوا التحميد في سورة الفاتحة فيكون التقدير . قولوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا﴾ إلى آخر السورة; إن الله بعد أن قرر لهم أنه لا يكلف نفساً إلى وسعها، لقنهم مناجاة بدعوات هي من آثار انتفاء التكليف بما ليس في الوسع. والمراد من الدعاء به طلب الدوام على ذلك لئلا ينسخ من جراء غضب الله كما غضب على الذين قال فيهم: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾(النساء: ١٦٠)[٣]".

وفيه دلالة بالغة على محبته لنا سبحانه، ورحمته بنا فقد "دعانا إلى أن ندعوه بهذا الدعاء، الذي صاغه سبحانه من كلماته، وجعله سببا لملائكته ولعباده الصالحين، يسبّحون له، ويدعون لنا به، بل إنه سبحانه وتعالى يأتمّنا بهذا الدّعاء، ويصلى علينا به، ونحن نقول بما يقول، ونصلّى بما يصلّى.. فما أكثر رحمة اللّه بنا، وما أوسع فضله علينا; إذ تقبّل دعاءنا قبل أن ندعو، واستجاب لنا قبل أن نكون! فقد رفع اللّه عنا الخطأ والنسيان، كما أخبر الرسول الكريم فى قوله: «رفع عن أمّتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٤].

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ١ / ٥٠٧

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٢ / ٧٦٣

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢ / ٦٠١

(٤) التفسير القرآني للقرآن، د. عبد الكريم الخطيب، ٢ / ٣٩١

و"قال السّدي: لما نزلت هذه الآية فقالوها، أي ودعوا بها، قال جبريل للنبي صلّى الله عليه وسلّم:«قد فعل الله لهم ذلك يا محمد». فهذا دلالة على أن هذه الدعوات السبع مستجابة بحمد الله. وأول هذه الدعوات وثانيها: ربنا لا تؤاخذنا على النسيان الغالب، والخطأ غير المقصود، إذ تركنا ما ينبغي فعله، أو فعلنا ما ينبغي تركه[1]".

إن هذا الطلب النهي في ختام أكبر سورة في القرآن العظيم غرضه – وهذا من نافلة القول – الدعاء والتضرع والتوسل للخالق عز وجل، وهو "دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم وإدراكهم لضعفهم وعجزهم، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه، وإلى مدده وعونه وإلصاق ظهورهم إلى ركنه، والتجائهم إلى كنفه، وانتسابهم إليه وتجردهم من كل من عداه... فدائرة الخطأ والنسيان هي التي تحكم تصرف المسلم حين ينتابه الضعف البشري الذي لا حيلة له فيه. وفي مجالها يتوجه إلى ربه يطلب العفو والسماح. وليس هو التبجح إذن بالخطيئة أو الإعراض ابتداء عن الأمر، أو التعالي عن الطاعة والتسليم أو الزيغ عن عمد وقصد[2]".

٢- يحملهم قيودا كالتي كانت على من قبلهم من الأمم، في قوله تعالى:﴿ ...رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا... ﴾(٢٨٦).

الحمل هنا تعني التكليف، جاء في ذلك: "(حمله) الشيء والأمر كلفه حمله... (تحامل) على فلان جار ولم يعدل وكلفه ما لا يطيق ويقال تحاملت على نفسي والشيء وفيه وبه تكلفه على مشقة وإعياء[3]".

أما الإصر فورد في تعريفه: "الأَصْرُ: عقد الشيء وحبسه بقهره، يقال: أَصَرْتُهُ فهو مَأْصُورٌ، والمَأْصَرُ والمَأْصِرُ: محبس السفينة. قال الله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ (الأعراف: ١٥٧) أي: الأمور التي تثبطهم وتقيّدهم عن الخيرات وعن الوصول إلى الثواب، وعلى ذلك: ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقيل: ثقلا «٣». وتحقيقه ما ذكرت، والإِصْرُ: العهد المؤكّد الذي يثبّط ناقضه عن الثواب والخيرات، قال تعالى: ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾(آل عمران: ٨١)[4]".

---

(١) التفسير الوسيط، د. وهبة الزحيلي، ١ / ١٧٠

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١ / ٣٤٥

(٣) المعجم الوسيط، ١ / ١٩٩

(٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٧٨

وقيل: "الإصر: كل عقد وعهد فهو إصر {وأخذتم على ذلكم إصري}; أي عهدي، وقال الأزهري في قوله تعالى {ولا تحمل علينا إصرا}: أي عقوبة ذنب يشق علينا، {ويضع عنهم إصرهم}; أي ما عقد من عقد ثقيل عليهم مثل: قتل أنفسهم وما أشبه ذلك من قرص الجلد إذا أصابته نجاسة[1]".

إن المؤمنين في هذا السياق المبارك يدعون ربهم الرحيم الذي خلقهم وعلى علم كامل بضعفهم وعجزهم – أقول يدعونه ألا يكلفهم من العهود والمواثيق والقيود ما لا يقدرون على أدائه، فهم يريدون محبته وطاعته وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه; لذلك يدعونه سبحانه أن يكلفهم بما يطاق من الأمور.

وورد في هذا السياق الكريم: "والمعنى في قوله: لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً يريد به عهدا، وهو الأمر الذي يثقل. روى نحوه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وهو في معنى قوله تعالى: وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، يعنى: من ضيق، وقوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ الآية، وقوله تعالى:ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ، وقال النبي ﷺ: جئتكم بالحنيفية السمحة وروى عنه: أن بنى إسرائيل شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم[2]".

وقال صاحب اللطائف: "لكمال رحمته بهم وقفهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير، كل ذلك رفق منه وفضل... وكانت الأمم السالفة إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضى مدة لقبول التوبة، وفى هذه الأمة قال ﷺ: «الندم توبة»[3]".

وقد قيل في هذا السياق أيضا "قال الفضيل في قوله تعالى لا تحمل علينا إصرا الآية قال:كان الرجل من بني إسرائيل إذا أذنب الذنب قيل له: توبتك أن تقتل نفسك، فيقتل نفسه فوضعت الآصار عن هذه الأمة، وأخرج الطبري من طريق ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح في قوله كما حملته على الذين من قبلنا قال: لا تمسخنا قردة وخنازير، ومن طريق عبد الرحمن بن زيد قال: لا تلزمنا ذنبا لا توبة فيه ولا كفارة[4]"، وقيل أيضا:

---

(١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ١ / ١٧١

(٢) أحكام القرآن، الجصاص، ٢ / ٢٧٩

(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ١ / ٢١٦

(٤) العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني، ١ / ٦٥٥

"الإصر هنا: الثقل العظيم من كلفة أمر أو وبال نهي. وسمي في الأصل العهد إصرا، وكذلك الرحم; لأن القيام بحقهما ثقيل عظيم[1]".

٣- يحملهم ما لا يطيقون، في قوله تعالى: ﴿ ...رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢٨٦).

الطاقة: "اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقّة، وذلك تشبيه بالطَّوْقِ المحيطِ بالشيء[2]"، وقيل: "الاستطاعة هي عرض يخلفه الله تعالى في الحيوان يفعل أو يفعل به الأفعال الاختيارية والاستطاعة والقدرة والقوة والوسع **والطاقة** متقاربة في المعنى في اللغة و أما في عرف المتكلمين فهي عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك[3]".

وقيل: "الطاقة: من الطوق، وهو ما استقل به الفاعل ولم يعجزه[4]"، وقيل: "(طاقه) طوقا وطاقة: قدر عليه... (الطاقة) القدرة وما يستطيع الإنسان أن يفعله بمشقة[5]".

وقد ورد في تفسير هذا النص الكريم: "وإنى لأحبّ أن أفهم قوله تعالى: «رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ». على أنه -مع كونه دعاء مطلقا يدعو به المسلم فى كل وقت- هو تعويذة يلوذ بها المذنبون الذي تغلبهم أنفسهم، وتقهرهم أهواؤهم فيقترفون ما اقترفوا وهم فى هذا الضعف النفسي المستولى عليهم، فهم. والحال كذلك. قد وجدوا أمام أمر لا طاقة لهم به، وهم لذلك فى استخزاء، وفى حسرة وندم، لا يجدون إلا وجه الله يبسطون أيديهم إليه أن يعينهم على أنفسهم، فيقوّى من إيمانهم، ويشد من عزائمهم، فى هذا الصراع الدائر فى كيانهم، بين الإقدام على المعصية والإحجام عن مواقعتها، حتى ينتصروا على أنفسهم وينتهوا عمّا نهوا عنه[6]".

---

(١) باهر البرهان، بيان الحق، ١ / ٢٧٣
(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٥٣٢
(٣) التعريفات، الجرجاني، ١ / ٣٥
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١ / ٤٧٧
(٥) المعجم الوسيط، ٢ / ٥٧١
(٦) التفسير القرآني للقرآن، د. عبد الكريم الخطيب، ٢ / ٣٩٢

إن هذا الدعاء "دعاء يشي بحقيقة الاستسلام. فالمؤمنون لا ينوون نكولا عن تكليف الله أيا كان. ولكنهم فقط يتوجهون إليه راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم فلا يكلفهم ما لا يطيقون. كي لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه.. وإلا فهي الطاعة المطلقة والتسليم.. إنه طمع الصغير في رحمة الكبير. ورجاء العبد الضعيف في سماحة المالك المتصرف.وطلب ما هو من شأن الله في معاملته لعباده من كرم وبر وود وتيسير. ثم الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير، الذي لا يمحو آثاره إلا فضل الله العفو الغفور[1]".

وقيل في ذات السياق: "ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به فيه قولان: أحدهما: ما لا طاقة لنا به مما كلفه بنو إسرائيل. الثاني: ما لا طاقة لنا به من العذاب[2]".

ومن الألفاظ الشائعة في هذا المجال: ربنا – تؤاخذنا – نسينا – أخطأنا – تحمل _ إصرا – قبلنا – تحملنا – لا طاقة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١ / ٣٤٦

(٢) النكت والعيون، الماوردي، ١ / ٣٦٥

obeikandl.com